مخطوطات فاطمية

كتاب سيرة الأستاذ جوذر

وقع بين يدى أخيراً أربعة كتب خطية من تلك الكتب العديدة التى ألفت فى عصر الدولة الفاطمية فى مصر ، والتى لا يزال الاسماعيلية يحتفظون ببعضها إلى اليوم ، ويحافظون على سريتها ويحرصون أشد الحرص على ألا تقع فى أيدى غير الاسماعيلية . ومن هذه الكتب « كتاب سيرة الأستاذ جوذر » الذى يعد حلقة من حلقات « فن السير » ، ذلك الفن الذى كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية فى مصر الاسلامية . فقد وجه كتاب مصر وعلماؤها عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم . وقد وصلنا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن العزيز لعبد الله بن الحكم ، رئيس المدرسة المالكية بمصر فى القرن الثانى من الهجرة ، وسيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش للمؤرخ المصرى ابن الداية ، وسيرة الإخشيد ، وسيرة ابنه ، وسيرة كافور ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز ، وسيرة سيبويه المصرى لمؤرخ مصر ابن زولاق ، وسيرة جعفر الحاجب لمحمد بن محمد اليمانى ، وسيرة المعز لدين الله للقاضى النعمان ابن محمد بن حيون المغربى ، والسيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين هبة الله بن موسى داعى الدعاة . ويطول بنا الأمر لو أحصينا فى هذا المقال كل ما وصلنا فى فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلف المصريين بهذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماما خاصا ، نراه ممثلا فيما تركته مصر الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشاً على جدران معابدهم ومقابرهم ونراه فى مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقوهم من الآباء والقديسين ، وفى مصر الاسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة فى فن السير . ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق الأنوسى صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها سيرته ، وجاء ابن هشام فروى أكثرها عن المصريين على نحو ما نراه من سلسلة رواته . وبلغت عناية المصريين وكلفهم بفن السير أن

المصريين وضعوا للشعب « سيرا » عن أبطال أحبهم المصريون وأخذ الشعب فى ترديد هذه السير فى اجتماعاته ومغانيه مثل سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس وغيرها من السير الشعبية التى لا تزال تنشد إلى اليوم بين الشعب المصرى ويقبل المصريون على سماعها كل ذلك يدل على كلف المصريين بفن السير .

و« كتاب سيرة الأستاذ جوذر » كتاب صغير الحجم فى نحو مائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، يتحدث عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، ولكن حفظ التاريخ ذكراهم ، فلا يزال اسم جوذر يطلق إلى الآن على شارع وحارة وعطفة بالقاهرة كلها تنسب إليه هى شارع الجودرية وحارة الجودرية وعطفة الجودرية[1] ، أما جوذر نفسه فلم يتحدث عنه مؤرخ واحد من مؤرخى مصر الاسلامية ، ولو لم نعثر على هذا الكتاب الذى نتحدث عنه اليوم لظلت سيرته مجهولة غامضة .

صنف هذه السيرة أحد كتاب الدولة الفاطمية هو منصور الجوذرى العزيزى . ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن هذا الكاتب إلا ما ذكره هو عن نفسه فى هذا الكتاب بقوله : « لما استخدمنى مولاى الأستاذ جوذر — رضى الله عنه — كاتباً بعد وفاة كاتبه رشيق ، وكان ذلك فى سنة خمسين وثلثمائة ، وآثرنى بما أنالنيه من جزيل الرتبة وشرف المنزلة عنده ، وجعلنى واسطة بينه وبين الخدام تحت يده ، واستحفظنى على ما يجرى بينه وبين مولانا وسيدنا الامام المعز لدين الله من الأسرار ... » وقوله أيضاً فى آخر الكتاب : « ثم أسعدنى الله بخدمتى له ، وأدركنى من بركاته ما أوجب لى فى قلب وليه مولانا وسيدنا — قدس الله روحه — الرأفة والرحمة فصيرنى مكانه مقدما على أسبابه وجميع أصحابه ... وإلى الله أرغب بخالص الطلبة أن يختم لى بمثل ماختم له ، وأن يعين على المفترض من طاعة وليه وابن بنيه وخيرته من خلقه وخالصته من عباده عبد الله ووليه نزار أبى المنصور الامام العزيز بالله أمير المؤمنين صاحب العصر والزمان . »

---

(١) هذه الخطة فى قسم الجمالية بالقاهرة وينطقها القاهريون بالدال المهملة ، وورد ذكرها فى خطط المقريزى (ج ٣ ص ٦) بالدال المهملة أيضاً مع أن اسم جوذر فى كتاب سيرة جوذر ورد بالذال المعجمة ، وورد اسم جوذر فى كتاب الذخيرة لابن بسام بالذال المعجمة أيضا .

فمصنف الكتاب إذن دخل خدمة الأستاذ جوذر سنة ٣٥٠ هـ وظل فى خدمته إلى أن توفى جوذر سنة ٣٦٢ هـ ، فاتصل هو بالمعز لدين الله ثم بابنه العزيز بالله . وعلى نحو ما يتضح من كلام المصنف أن العزيز بالله جعله فى مرتبة رفيعة هى نفس المرتبة التى كان فيها جوذر . ويضيف المقريزى أن أبا على منصور الجوذرى زادت مكانته فى عهد الحاكم بأمر الله فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك[1] . هذا كل ما نعرفه عن مصنف هذا الكتاب أبى على منصور الجوذرى . وقد ذكر المصنف سبب تأليف هذا الكتاب بقوله : « وسنذكر ما سمعته منه (أى من جوذر) فى هذا الكتاب أولا فأولا ، ولما توفى رحمة الله عليه وقد طوقنى من الاحسان وقلدنى من الامتنان ما أعجزنى بما ترادف على منه عن شكر بعضه أيام حياته ، وأوجبت المروءة الوفاء له بعد وفاته ، أن أذكر فى هذا الكتاب جميع مناقبه وما شرفه به مواليه الأئمة الأطهار ، وما جرى له فى عصر كل واحد منهم من مكرمة أناله بها ، ، وفضيلة اختصه بها . وأحكى ذلك وأنقله على حسب ما جرى بتوقيعات ومشافهات فعل من صدق الله ربه وأدى أمانته ولم يغير شيئاً مما سمعه ولا زاد فيه ولا نقص منه ليتأمل ذلك من تأمله . »

أما تاريخ تصنيف هذا الكتاب فنحن نستدل من نصوصه أنه صنف فى عصر العزيز بالله الذى ولى الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٥ هـ وتوفى سنة ٣٦٨ ، ولكننا لا نستطع أن نحدد السنة التى صنف فيها ، ولا السبب الذى من أجله تأخر المصنف فى وضع كتابه هذا حتى عهد العزيز بالله ، مع أننا نفهم من الكتاب أن جوذر كان فى ركب المعز لدين الله من المغرب إلى مصر ، وأنه توفى بالقرب من مدينة برقة فى مكان يعرف بمياسر ، ونحن نعرف أن المعز دخل الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، ومع ذلك لم يصنف الكتاب إلا فى عهد العزيز بالله .

ذكر المصنف كيف دخل العبد الصقلى جودر وهو صبى فى خدمة عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب ، وأن المهدى أهدى هذا العبد الصغير إلى ولى العهد أبى القاسم القائم بأمر الله . ولكن المؤلف أغفل السنة التى

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٦ .

اتصل فيها جوذر بمواليه أئمة الفاطميين ، وإن كنا نستنبط من الحوادث التى وردت فى الكتاب أن جوذر اتصل بمواليه فى العام الأول لظهور الدولة الفاطمية بالمغرب أى فى سنة ٢٩٦ هـ . وقبل أن يبنى المهدى مدينة المهدية سنة ٢٩٧ هـ . التى اتخذها المهدى مقر حكمه وانتقل إليها هو وأسرته ، فالمؤلف يذكر قصة طريفة حدثت لجوذر عقب انتقال المهدى إلى عاصمته الجديدة مما يدل على أن جوذر كان من عبيد الفاطميين فى « رقادة » ، وجرياً على سنة الفاطميين فى تلقيب عبيدهم بالأستاذين فقد لقب العبد جوذر « بالأستاذ » شأنه شأن غيره من العبيد .

اشتدت صلة جوذر بمولاه القائم بأمر الله لما اتصف به جوذر من استقامة وأمانة و إخلاص فى ولائه ، حتى إن القائم بأمر الله — وكان لايزال ولى العهد — عند ما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ . استخلف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما توفى المهدى سنة ٣٢٢ هـ . خص القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع للامام المنصور بن القائم ، فظل هذا السر بين القائم وجوذر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية عهده لابنه المنصور . وفى خلافة القائم بأمر الله أصبح جوذر صاحب بيت المال ووكل بخزائن الكساء ، كما كان سفيراً بين الخليفة وسائر الناس . وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى فى الدولة الفاطمية فهابه الناس ، ولحبه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وهكذا استطاع جوذر بحكمته وعقله أن يكتسب حب وعطف مواليه والشعب معاً ، وبلغت علاقة جوذر بالقائم درجة لم يبلغها أحد من رجال عصره ، حتى إن القائم عند ما أراد أن يوصى ابنه المنصور قال له : ولكننى يا بنى استودع عندك وديعة أحب ألا تضيعها بعدى . قال المنصور : قل يا مولاى وأرجو أن ينسئ الله فى أجلك ويهب لنا ولكافة أمة جدك عليه الصلاة والسلام عافيتك . قال القائم : هيهات قدبلغ الكتاب أجله ، وديعتى عندك جوذر المسكين ، فاحفظه فلا يذل بعدى . قال المنصور : يا مولاى هل جوذر إلا واحد منا ؟ ومعنى هذا أن مكانة جوذر عند الفاطميين هى مكانة ذوى القربى واللحم ، أو مثل مكانة سلمان الفارسى فى أهل البيت لما يرويه الشيعة عامة أن النبى قال : « سلمان منا أهل البيت » .

وتوفى القائم بأمر الله سنة ٣٣٤ هـ فى وقت كانت المغرب فيه مرجلا يغلى

بالثورات على الفاطميين ، وكانت أكبر هذه الثورات وأشدها هى ثورة مخلد ابن كيداد الخارجى ؛ لذلك آثر المنصور بالله بن القائم أن يخفى موت أبيه فلم يعلم أحد بموته إلا جوذر ، وخرج المنصور لحرب الخارجى فاستخلف جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسلمه مفاتيح خزائن الأموال وحكمه فى كل شؤون الدولة ، وكان المنصور يرسل خطابات من القيروان وعليها عنوان القائم ليوهم الناس بأن القائم لا يزال على قيد الحياة ؛ فكانت هذه الخطابات تصل إلى جوذر فيتصرف بمقتضى ما فيها . وقد حفظ مصنف سيرة جوذر صور بعض هذه الخطابات فى كتابه هذا ، ومنها نستدل على هذه المكانة الرفيعة التى بلغها جوذر من نفس المنصور ؛ فقد جاء فى أحد هذه الخطابات : « يا جوذر . أحسن الله إليك ، وأتم وأسبغ نعمه عليك ، الذى يتصل بى عنك من الضبط والقيام والكفاية هو أحسن الظن بك والرجاء فيك ، وذكر لى إفراط فى الوحشة والاغتمام لفراقنا فلا يضعف قلبك لبعدنا عنك ، فانك معى ومنى وإلىّ ما قمت بالمفترض عليك وعملت لربك ورغبت فى عهده » .

وبعد أن أخمد المنصور فتنة مخلد الخارجى ، عاد إلى المهدية ونعى أباه القائم ، وأراد أن يكافئ جوذر فأعتقه من رقه ولقبه « بمولى أمير المؤمنين » إيعانا فى تشريفه ، وأمره أن يجعل مكاتباته لمن كبر قدره وصغر من جميع الناس « من جوذر مولى أمير المؤمنين إلى فلان ... » وألا يكنى فى رسائله أحدا ولا يقدم على اسمه اسما إلا الخليفة وولى عهده المعز لدين الله وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده ، وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط بأن يكتب على ذلك كله « مما عمل على يدى جوذر مولى أمير المؤمنين بالمهدية المرضية » وذلك كله تشريف وتقدير لجوذر لما قام به فى سبيل مواليه حتى بلغ منزلة رفيعة فى نفوسهم حتى قال المنصور : ما أدرى أين أخبئ جوذر من الموت ، ولو أن الشباب يشترى لبذلنا له فيه النفيس مما نملكه .

وتوفى المنصور سنة ٣٤١ هـ وكانت فتنة ابن واسول على أشدها ، فأخفى المعز لدين الله موته إلا على جوذر ، وظل جوذر مع المعز لدين الله كما كان مع أبيه المنصور وجده القائم ، وكان جوذر موضع سر مولاه الذى أسر إليه اسم ولى عهده وهو ابنه عبد الله ، فلم يعلم بأمر ولاية العهد أحد سوى جوذر فى الوقت الذى كان فيه الناس يتحدثون عن ولاية العهد للأمير تميم أكبر أنجال المعز .

ولما تم فتح مصر خلع المعز على جوهر القائد لقب مولى أمير المؤمنين وآخى بينه وبين جوذر ، أى إن جوذر ظل وحده يحمل هذا اللقب إلى إن فتحت مصر فمنح لجوهر أيضاً ، ومن يتتبع تاريخ الفاطميين يجد أن هذا اللقب قد شرف به عدد كبير من الوزراء والدعاة ولا سيما فى عصر المستنصر ومن بعده ، ولا نعرف أحداً من رجال العهد الفاطمى لقب به قبل جوذر .

ولما أراد المعز الانتقال إلى مصر ذهب الناس إلى أن أمر المغرب سيئول إلى جوذر ، ولكن جوذر آثر أن يكون مع مولاه و إمامه المعز لدين الله ولا يفترق عنه ، فسمح له المعز بالسير معه فى ركبه، فتوفى جوذر فى الطريق سنة ٣٦٢ على نحو ما ذكرناه من قبل ، وواصل أتباعه وحاشيته السير إلى مصر مع المعز إلى أن استقروا فى هذه الخطة من خطط القاهرة التى لا تزال تحمل اسم مولاهم جوذر — ويقول المقريزى إنهم كانوا أربعمائة شخص .

لا تقف أهمية كتاب سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى هذه الدولة منذ نشأتها ، و إنما هو يوضح لنا بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا سريعاً ؛ ففى الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التى نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية ، تلك الثورات التى كادت تقوض أركان هذه الدولة ، الناشئة ، كما يطلعنا هذا الكتاب على العلاقة التى كانت بين الفاطميين وصقلية ، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصانها ، ويظهر سبب الجفاء الذى كان بين المنصور وبين بنى عمومته من أولاد المهدى وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد فى تأديبهم ورصد حركاتهم . وبهذا الكتاب بعض آراء تخالف آراء المؤرخين القدماء ومن تبعهم من المحدثين . فمثلا ذهب القدماء إلى أن القائد جوهر الصقلى اتصل بالفاطميين فى عهد المعز ، ولكن جاء فى سيرة جوذر أن جوهراً كان كاتباً من كتاب المنصور بالله ، وأنه ظل بين الكتاب فى عهد المعز إلى أن عهد إليه بالفتوحات . وذكر المؤرخون أن العزيز بالله كان أكبر أبناء المعز لدين الله ، وأن الأمير تميم الشاعر المعروف كان ثانى أبنائه ، ولكن مصنف السيرة ذكر ما يدل على أن الأمير تميم كان الأكبر ، وأن العزيز هو الثالث ، وأن المعز صرف ولاية العهد عن تميم لما عرف عن تميم من خلاعة

ومجون ، وأنه جعل ولاية العهد إلى ابنه الثانى عبد الله ؛ فلما توفى هذا بمصر جعلها لابنه الثالث نزار العزيز بالله .

وهنا نقف وقفة قصيرة لنبدى عجبنا من تصرف المعز لدين الله فى هذا الشأن . فعقيدة الاسماعيلية فى تسلسل الامامة تذهب إلى أن الامامة لاتنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين . وإنما تنتقل من والد إلى ابن . وهذه العقيدة أصل من أصول مذهبهم ، وهى دليلهم الوحيد فى خصومتهم مع الشيعة الاثنى عشرية الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق ، فقدذهب الاثنا عشرية إلى أن اسماعيل توفى فى حياة أبيه فانتقلت الامامة إلى أخيه موسى الكاظم على حين قال الاسماعيلية إن النص لا يرجع القهقرى ، ومادام جعفر الصادق قد نص على إمامة اسماعيل فيجب أن ينتقل النص بعد وفاته إلى ابنه محمد بن اسماعيل ولا ينتقل إلى أخيه ، واتخذوا الآية القرآنية الكريمة « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » دليلا لهم على انتقال الامامة . من أب إلى ابن ، وعلى هـذا النحو تتسلسل الامامة فهـذه العقيـدة التى كانت سبباً فى انقسام أتباع جعفر الصادق إلى اسماعيلية وموسوية لم يقم لها المعز لدين الله وزناً ؛ فقد نص على ابنه عبد الله واستودعه الأستاذ جوذر أولا وبعد سبعة أشهر أعلن هذا النص لبعض الدعاة . فحسب عقيدة الاسماعيلية يجب أن ينتقل النص إلى ابن عبد الله ولكن المعز جعلها لابنه نزار مما يدل على أن العقيدة الأولى تطورت ثم نرى الابتعاد عن العقيـدة الأولى فى قصة نزار ابن المستنصر وفى تولية عبد المجيد الحافظ ومن بعده من ملوك الفاطميين . وبلغ التهاون بهذه العقيدة إلى أشدها فى عهـد العاضد عندما أراد شاور أن يجعل الامامة لدعاة اليمن . وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذا الكتاب بعض حقائق تاريخية وبعض نواحى نظم الحكم عند الفاطميين مما لا نجـده فى كتاب آخر .

كذلك نستطيع أن نتخذ « كتاب سيرة جوذر » من الوثائق الأدبيـة ؛ فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التى خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله إليهما ، وقد بلغ عددها فى هذا الكتاب نحو المائة ؛ فالكتاب أشبه بديوان توقيعات للفاطميين . ولا أكاد أعرف كتاباً جمع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب وكتاب « المجالس والمسايرات » للقاضى النعمان الذى جمع فيه مؤلفه بعض توقيعات

المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذى جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليحيين باليمن . وتمتاز ما فى سيرة جودر من توقيعات أنها تطلعنا على بعض النواحى الاجتماعية والتاريخية . أما فى المجالس والمسايرات فهى فى العقائد وآداب الدعوة ، وكذلك ماجاء فى السجلات المستنصرية ، كما أجد فى سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله وخطبة المنصور فى نعى القائم وخطبة المعز فى نعى المنصور . وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية فى العصر الفاطمى ، ولا سيما فى تلك الفترة الغامضة فترة الدولة الفاطمية بالغرب .

وأرجو أن أوفق لتقديم هذا الكتاب قريباً للمطبعة ، ولا سيما بعد أن استطعت الحصول على نسختين منه .

محمد كامل حسين
بكلية الآداب